مجلة المختار للعلوم الإنسانية 29 (1): 367-391، 2018

Research Article Open Access

بواعث الزهد وموضوعاته في الشعر الأندلسي

موسى محمد بدر

Doi: https://doi.org/10.54172/9335fv63

المستخلص : الزهد في الحياة هو ترك ملذاتها والابتعاد عن شهواتها والتخلُّص من وهمها الخادع، والرضا بالحياة البسيطة والاكتفاء بالضروريات. في الشعر الأندلسي، يعتبر الزهد موضوعًا مهمًا ومتكررًا. يقدم الشعراء الأندلسيون رؤية فلسفية وروحانية للزهد، ويعبرون عن التوجه نحو الاستغناء عن الدنيا والسعي نحو الأخرة. يستعرض هذا المقال مفهوم الزهد في الشعر الأندلسي ويذكر أمثلة من قصائد الشعراء الأندلسيين البارزين. يتمحور الزهد في شعرهم حول تجاوز الشهوات الدنيوية والتمسك بالقيم الروحانية والأخلاقية. يعكس هذا الشعر تراثًا ثقافيًا غنيًا ومتنوعًا يشدد على قيم التجرد والتفاني والتوجه نحو الله. يتجلى الزهد في ترك المحظور والاكتفاء بالحلال، وتجاوز أغراض الدنيا المادية. يعتبر الزهد توجهًا روحيًا وفلسفيًا يسعى إلى تحقيق القرب من الله والتجاوز عن الدنيا الزائلة. يعد الشعر الأندلسي وسيلة مؤثرة لنشر فكرة الزهد وتعزيز قيمها في المجتمع الأندلسي.

الكلمات المفتاحية: الزهد، الشعر الأندلسي، القيم الروحانية.

The motivations and themes of asceticism in Andalusian poetry

Mousa Mohammed Bader

Abstract: Asceticism in life is abandoning its pleasures, distancing oneself from its desires, and freeing oneself from its deceptive illusions, while being content with a simple life and being satisfied with necessities. In Andalusian poetry, asceticism is considered an important and recurring theme. Andalusian poets present a philosophical and spiritual vision of asceticism, expressing a inclination towards detachment from the material world and striving for the hereafter. This article explores the concept of asceticism in Andalusian poetry and provides examples from the works of prominent Andalusian poets. Their poetry revolves around transcending worldly desires and adhering to spiritual and moral values. This poetry reflects a rich and diverse cultural heritage that emphasizes values of detachment, selflessness, and devotion to God. Asceticism manifests in renouncing the prohibited and being content with what is permissible, surpassing worldly possessions. Asceticism is regarded as a spiritual and philosophical approach that seeks to achieve closeness to God and transcend the transient world. Andalusian poetry serves as an influential medium for spreading the idea of asceticism and promoting its values in Andalusian society.

Keywords: Asceticism, Andalusian poetry, spiritual values.

The Author(s) 2023. This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/) , which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium ,provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مقدمة

الزهد في الحياة هو ترك ملذاتها والإنصراف عن شهواتها والبعد عن بهرجها الكاذب الخداع , والاكتفاء بضروريات الحياة , وهو عند الصوفية كما ورد في دائرة معارف البستاني(1) (أخذ قدر الضرورة من الحلال وقيل بغض الدنيا والإعراض عنها,وقيل ترك راحة الدنيا طلبا للأخرة وقيل هو ان يخلو قلبك مما خلت منه يدك,وقيل هو اخذ الضرورة من الحلال المتيقن الحل,فهو اخص من الورع وأعلى من زهد المقربين وهو الزهد فيما سوى الله تعالى من دنيا وجنة وغيرهما اذ ليس لصاحب هذا الزهد إلا الوصول الى الله تعالى والقرب منه ، وفي دائرة المعارف الإسلامية ((هو الابتعاد عن الخطيئة والإستغناء عن الكماليات وتجنب كل مامن شأنه ان يبعد عن الخالق(2))) والمراد بالزهد في اللغة : الرغبة عن الشيئ خصص بما يكون الرغبة فيه عن الدنيا (3).

وفي الإصطلاح: ترك المباح المحبوب المقدور عليه لأجل الله , فتارك المحظور لايسمى زاهذا وتارك مالايؤبه به لايسمى زاهدا , وتاركه على سبيل السخاء والفتوة واستمالة القلوب والطمع في الثناء لايكون زاهدا , إذ الذكر والثناء وميل القلوب ألذ وأحب من المال ومن ترك مالايقدر عليه لايسمى زاهدا(4) والزهد ليس حادثا في الإسلام مع عدم ورود هذه الكلمة في القرآن أو السنة فقد عاش صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم عيشة الزاهدين المتبتلين, ويسوق لنا التاريخ أمثلة حية من زهدهم وعزوفهم عن متاع الحياة وزخرف العيش,فقد كان أبوبكر رضي الله عنه يتعبد لربه حتى تشم من فمه رائحة الكبد المحترقة من خشية الله وكان يقول: من ذاق من خالص المعرفة شيئا شغله ذلك عن ماسوى الله واستوحش من جميع البشر وكان يقول: (ماشتهيت طعاما إلا منعت نفسي منه فلايتلف النفوس إلا الشهوات(5)) وكان عمر رضي الله عنه يلبس الثوب المرقع ويأكل الخبز دون إدام وكان يفترش الأرض وينام على الحصى(6) وكان علي رضي الله عنه يقول: (يادنيا غري غيري أإلي تقربت؟ هيهات هيهات قد باينتك ثلاثا,فأمرك حقير, وأجلك قصير,آهٍ من قلة الزاد وبعد الطريق) وفي سيرة سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه وبقية الصحابة ماتضيق عنه الصحف من المثل الرفيعة والقيم النبيلة ومع هذا لايمكن أن نطلق عليهم كلمة زهاد أو صوفية بالمعنى المتواضع عليه , ولكنهم ملكوا الدنيا في العلم والسيادة , وعظم شأنهم في بناء الأمة الإسلامية, فهانت عندهم الحياة المادية, فعثمان وأبوعبيدة كانوا من أغنياء الناس ولكنهم انصرفوا عن الدنيا بما هو أعظم منها , وهو القيام بشؤون الرعية,وعمر بن عبد العزيز قبل أن يصبح خليفة كان من أحسن الناس عيشا, وأطيبهم ريحا, وأخيلهم في مشيته,وكان يشتري الثوب بأربعمائة درهم ويقول:ما أخشنه وأغلظه فلما ولي الخلافة صار أشد الناس في المطعم والملبس.

إن زهد هؤلاء لم يكن شيئا وقر في نفوسهم ولكنه كان تساميا عن أغراض الدنيا المادية وأعراضها الزائلة , والتفاتا عن ماهو أليق بالنفوس الكبار التي تنعى على هذه الحياة الشاذة , وترى الأعلى في الفضيلة الإنسانية وفي تجرد النفس من الشهوات والبعد عن مصادر الإغراء والفتنة وهذا العزوف عن الدنيا لم يكن توقفا تاما أو دعوة إلى التوقف عن الحياة والتعمير وإقامة الصالح من الأعمال وإظهار النشاط في مختلف الميادين.

لقد كان سلوكا معتدلا لم يند إلى الشطط ولم يكن أيضا رد فعل سلبي من جانب أصحابه على دافع سياسي,أو اجتماعي,أو اقتصادي,انما كان الدافع إليه دافعا دينيا محضا حتى إذا لم يطلق عليه هذا المصطلح ((زهد)) إنه زهد خالص نبت في البيئة الإسلامية ولم يكن بحاجة إلى التأثر للتأثر بعنصر أجنبي إنه زهد نبع من

نفوس آثرت الباقية على الفانية , وهذه الأمثلة من حياة الصحابة وعزوفهم عن الدنيا مع قدرتهم عليها وانقيادها إليهم يدحض الحجج القائلة بأن المسيحية أو غيرها أدت إلى نمو الزهد(7)هذا على الأقل في مراحله الأولى وخاصة لدى الصحابة الذين ظلوا متمسكين بحياتهم التي ألفوها بجوار رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يستجيبوا لمتطلبات الحياة الجديدة بعد أن فتح الله على المسلمين البلاد وكثرت الخيرات وعم الرخاء وفي مقدمتها هؤلاء أبو هريرة وأبوذر الغفاري رضي الله عنهم وغيرهم من أتقياء المسلمين من القراء وأهل الحديث وعلماء الدين.

أما في القرن الثاني الهجري ومابعده فلم تكن حركة الزهد متصلة بدوافع دينية وحسب ولكنها كانت نتيجة دوافع مختلفة تحث على وجودها إلى جانب الدافع الديني الذي كان أساسا في حركة الزهد التي مثلها أولئك الذين اتقوا الله حق تقاته,واستشعروا تفاهة الدنيا فلم تشغلهم بملذاتها وزينتها , بل عكفوا على أنفسهم يطهرونها من أدران الحياة المادية متطلعين إلى ري ظمئهم عن طريق التجربة الروحية الصافية , ولكن هذا الدافع اختلط فيما بعد بعوامل سياسية واجتماعية واقتصادية وربما دينية دخيلة.

فإذا عدنا للزهد في الاندلس فإننا سنجد كتب التراجم تمدنا بمعلومات قيمة عن الزهذ ونشاته في الأندلس وأطوار وجوده وأخبار الزهاد وأسمائهم ومؤلفاتهم وآثارهم الشعرية وإن لم يبق من معظم هذه المؤلفات إلا أسماؤها ويورد(بلنثيا) أن أخباراً ترجع الى أقدم العصور الإسلامية في الاندلس تحدثنا عن زهاد أندلسيين اجتهدوا في تعذيب أبدانهم وحرمان أنفسهم من اللذات , وآثروا الفقر طواعية وكانوا يقطعون سواد الليل في قراءة القرآن , ويصومون الدهر لايأكلون إلا مرة واحدة في الأسبوع في شهر رمضان ؟ لايتداوون إذا مسهم المرض,ويقيمون عزبا ويخرجونعما بأيديهم للفقراء , ويفتدون الأسرى ويقطعون العمر متوحدين بأنفسهم في عزلة وتأمل ويرابطون في الثغور لمحاربة النصارى طلبا للشهادة(8) وبعض أقول (بلنثيا)هذه لاتنسجم مع طبيعة الزهد ولا مع تعاليم الإسلام خاصة ونحن نجهل من أين استقى هذه الأخبار ويرى الدكتور إحسان عباس أن الزهد في الأندلس ولد في أحضان الثورة على الحكم الربضي 180-206 هـ ، إذ كان الأتقياء ينظمون أشعار الزهد ويتغنون بها في الليل ويضمنونها التعريض به , ثم أخذ هذا الأدب يقوي ردا على الحياة اللاهية في المدن التي انغمس فيها الكثير من الاندلسيين وذيوع أشعار أبي العتاهية بين أهلها(9).

أما في عصرنا هذا فإن موجة الزهد قد احتدمت بسبب المحن السياسية وكثرة الحروب والفتن وانحسار الإسلام شيئا فشيئا عن تلك البقعة الغالية حيث ظهرت موجة قوية من الزهد (سلك طريقها نفر من الخاصة والعامة إما ثورة على الظلم والفساد وإما بدافع أصيل من التدين والورع , أو بعامل من اليأس من تحقيق مايطمحون إليه)(10).

كما كان لبعض الحكام الموحدين أثرهم في تعميق هذه الحركة حيث يحدثنا (المراكشي) ان الخليفة يعقوب المنصور الموحدي أظهر زهدا وتقشفا وخشونة ملبس ومأكل , وكان من شدة تواضعه أن اختصم إليه رجلان في نصف درهم , فقضى بينهما ثم أمر صاحب شرطته أن يضربهما ضربا خفيفا تأديبيا لهما , وقال:أما كان في الأرض حكاما نصبوا لمثل هذا ؟ وكان إذا خرج للجهاد والغزو بعث في طلب الصالحين والمنتمين إلى الخير وحملهم إليه واجتمعت له منهم جماعة كبيرة كان يجعلهم كلما سار بين يديه فإذا نظر إليهم قال لمن عنده : هؤلاء هم الجند لاهؤلاء!وأشار إلى العسكر(11) كما كان الأمير أبو محمد عبد العزيز الملقب بالمنتظر زاهدا ورعا له أوراد ووظائف لايخل بها وأذكار يرتبها على أوقات الليل والنهار(12) وقد

طلب من الأديب الكاتب عمر بن محمد القيسي(13) أن يجمع له مانظم من التهجد وقيام الليل فقدم له من ذلك دفترا حسنا منه هذه القصيدة من إنشاء الشاعر المذكور:

ذهب الظلام وأنت جذع راقــد وأتى الصباح وأنت صخر جامد

وخلت على الإظلام منك مناسك وخلت على الإصباح منك مساجد

وأولو التهجد ليلهم ما منهــم للـــه إلا راكع أو ســـاجـــد

ومنها:

وتذكـــر السفر البعيد وطوله من غيــر زاد والمجـــال فدافد

واذكر نشورك بعد موتك فجأة وصحائف الأعمال منك تشاهد

وهي حوالي ثمانية عشر بيتا , وزهد أمثال هؤلاء الحكام ينفي عن الزهد القول بأنه (تيار اجتماعي تنبع جذوره من أوساط الفقراء والطبقة المحرومة في المجتمع أن أساسه الذي يصدر عنه اجتماعي مادي)(14) هذا على مستوى الطبقة الرفيعة أو الحاكمة في المجتمع ، أما على المستوى الشعبي فإن كثيرا من الزهاد كان زهدهم نابعا من تدينهم ونضرب لذلك مثلا بالزاهد أبي بكر بن إبراهيم بن قسوم الإشبيلي الذي كتب عن أمراء وقته ونال دنيا واسعة وجاها عريضا ثم ترك ذلك كله زهدا وانقاطعا إلى الله تعالى قال أبو الحسن الرعيني : لا اعلم في عصرنا زهداً في الدنيا حقيقة زهد أبي بكر , فقد زهد عن تمكن فيها وظهور عند بنيها,وبعد إقبالها عليه أعرض عنها وأقبل على عبادة ربه , ورفض ماكان في يده منها , وكان له ديوان جمع فيه ماصدر عنه من نظم ونثر أيام تنشبه في الخدمة ولما نزع عنها مزقه وحرقه ولم يخطر على باله منه شيئ وله ديوان زهدي مرتب على حروف المعجم وطريقته في نظمه سهلة المساق بعيدة عن التكلف وله مصنفات منها : محاسن الأبرار في معاملة الجبار ، ومنها النبذة المشتملة على شذور من المنظوم والمنثور ، وفي التكملة قال المكري : وله نظم ونثر وتواليف في الزهد وديوان شعر ومؤلف في صلحاء أشبيليا هذا الزاهد قد مارس الحياة العامة وتولى الوظائف وزهد في الدنيا بعد أن صارت طوع يديه جاها ومالا وهذا يؤيد أن الزهد لم يكن في جملته هروبا من الواقع بل قد يكون إيثارا لما عند الله على ما في هذه الدنيا من متع وملذات ويحدثنا ابن قسوم عن هذه النقلة فيقول(15) :

شكرتك يامولاي حين نقلتنــي فمن باب سلطان إلى باب مسجد

فأصبحت مابيني وبينك حاجب يصـد ولا البـــاب موصـــــــد

أرتل خمسا بين يوم وليلة وأرجع والخيرات قد ملأت يدي

وستأتي نماذج أخرى من صنف هذا الرجل وهي أمور ترفع عن الزهد وصمه كله بالسلبية وفصله عن الحياة كما أشاع ذلك المستشرقون وتابعهم عليه بعض كتابنا كما أنه لم يكن دائما هروبا من واقع اجتماعي مريض أو اقتصادي مترد والدليل على ذلك أن كثيراً من زهاد المسلمين لم ينفصلوا بأنفسهم عن حياة الناس ولم يرضوا العيش على فتات الموائد بل كانوا يمارسون التجارة ويحترفون حرفا يرتزقون منها وكانوا يلبون نداء الواجب فيتقدمون صفوف المجاهدين ويشاركون في مسؤوليات الجهاد على طول العصور الإسلامية

حتى كانت زواياهم تعرف (بالأربطة) جمع رباط وهو ثغر الحرب إشارة إلى أنها كانت مراكز لتجمع المحاربين وقليل منهم الذي أغلق عليه بابه واعتزل الناس بدون سبب وهذا مايجعلنا ننفي عن الزهد وصفه بأدب (الفقر والحرمان)(16) وأنهما الباعثان الحقيقيان عليه وننسى بقية البواعث الأخرى من حروب وتشريد من الديار ومجون وتهور في أوساط بعض طبقات المجتمع وهي كلها أمور تبعث على انتشار الزهد وتقوية تياره مع عدم اغفال الأساس الاجتماعي المادي ولكن هناك عوامل أخرى وبواعث كثيرة خفية وظاهرة تؤثر في نفسية الأشخاص وتلونهم باللون الذي تريد فقد تميل بمترف إلى الزهد أو تدفع بآخر فقير معدم إلى حياة اللهو والمجون.

بواعث الزهد

إن بواعث الزهد كثيرة وهي تتنوع وتختلف بحسب الأشخاص فقد يكون باعث الزهد تكوين الشخص الثقافي إذ يلاحظ على معظم شعراء الزهد أنهم من الفقهاء والعلماء والمحدثين والقضاة والوعاظ والخطباء , وشأنهم هذا يفصل لنا توجههم هذه الوجهة بحكم ثقافتهم الإسلامية ونضج تفكيرهم الديني ولايعني ذلك أن كل الفقهاء نظموا في هذا اللون فهناك الكثيرون منهم الذين نظموا في معظم الأغراض ماعدا الزهد ولكن

يمكن أن نقول إن أصحاب الثقافة الدينية هم الذين ترجحت لديهم كفة الدين على الدنيا فصاروا يعملون في دنياهم ويزرعون لاخراهم ليجنوا ثمار صالح أعمالهم هناك .

ومن بواعث انتشار الكتابة الزهدية في الأندلس ظهور ثلاثة نماذج شرقية في الأدب الزهدي كتب لها الذيوع والانتشار في الأندلس فنالت مكانة عند أربابها فاهتموا بمعارضتها والنسج على منوالها وهي :

ملقى السبيل:لأبي العلاء المعري ، ومقامات الزمخشري الوعظية ، وصبا نجد وغيرها من كتب ابن الجوزي ، وملقى السبيل عبارة عن رسالة جمعت بين الشعر والنثر مرتبة على حروف المعجم وكل حرف يتضمن فكرة خاصة عن الحياة والموت والبخل وغيرها من الموضوعات التي تدور كلها حول الزهد وهذه الرسالة عباراتها موجزة وجملها قصيرة(17) وقد عرضها السهيلي(18) وسمى معارضته حلية النبيل في معارضة ملقى السبيل كما عارضها أبو الربيع الكلاعي(19) وسمى معارضته مفاوضة القلب العليل ومنابذة الأمل الطويل في معارضة ملقى السبيل كما عرضها ابن الآبار وسمى معارضته مظاهرة المسعى الجميل ومحاضرة المرعى الوبيل في معارضة ملقى السبيل(20) وعارضها أبو العباس ابن الغماز وسمى معارضته مفاوضة القلب العليل على طريق أبي العلاء في ملقى السبيل (21) كما عارضها أبو العباس الإقليجي وأبو القاسم بن هاشم القرطبي(22).

صبا نجد: وغيره من كتب ابن الجوزي وقد سار على منهاجه كثير من أهل الأندلس في هذا العصر منهم : أبوبكر محمد بن عفير الذي التقى بابن الجوزي في المشرق فعاد إلى الأندلس يحمل طريقته في الوعظ (23) ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن خلف الأنصاري من أهل مرسية وقد سمى تأليفه نسيم الصبا على طريقة ابن الجوزية وله كتاب بغية النفوس الزكية في الخطب الوعظية كتبه عن ابن الأبار(24) ، ومنهم أبو الحسن يحي بن الصنهاجي الذي سمى فصوله الوعظية(صبا نجد) كما عارض ابن الجوزي الشاعر ميمون بن خبازة في بعض فصوله الوعظية وابن الآبار في كتابه (درر السمط).

ولابن عميرة فصول وعظية على طريقة الإمام أبي الفرج بن الجوزي كما له مجالس وعظية كان يصنعها للواعظ أبي محمد علي بن أبي خرص (25) كذلك كان للشاعر أبي زيد الفازازي (26) فصول وعظية يصنعها للواعظ أبي عبد الله بن الحجام وكتب التراجم التي عنيت بهذا الشأن مليئة بمثل هذه الإشارات إلى الأعمال التي صنعوها في هذا الباب كالمجالس الوعظية والمعشرات والعشرينيات في الزهد والمدائح النبوية وكلها تشهد بتغلغل النزعة الزهدية في الأدب الأندلسي .

ومن البواعث الحالة السياسية والإجتماعية التي لم يسع الناس من حيث هم أفراد إصلاحها وتقويمها في ظل الإضطرابات والنكبات والفتن وأفلت الزمام من أيدي أولي الأمر مما جعل الناس يتبرمون بالحياة ويضيقون بها ذرعا لقد خلفت حالة الحصار شبه الدائم والصراع على السلطة يأسا وتذمرا عبر عنه الشعراء والكتاب كما في قول الفازازي(27):

الروم تضرب في البلاد وتغنـــم والجور يأخذ مابقى والمغرم

والمال يـــورد كلـــه قشتالـــة والجند تسقط والرعية تسلم

وذوو التعيين ليس فيهم مسلم إلا معين في الفساد مسلـــم

أسفي على تلك البلاد وأهلها الله يلطف بالجميع ويرحم

وحالة اليأس هذه دفعت بالشاعر أبي إسحاق إبراهيم بن قاسم البطليوسي أن يتشفى من الناس حكاما ومحكومين تشفي المتألم اليائس من الإصلاح لاتشفي الحاقد المبغض الطامع كغيره في ولاية أو منصب فيقول(28):

دع الأيام تنصف من أناس إذا صارت لهم حقروا الكراما

ولاتدمع جفونك إن تفانوا ولاتقرأ على أحد سلاما

ونكب عن مصارعهم جزاء ولاتحفظ لمذموم ذماما

صحبت الناس جيلا بعد جيل فلم أر من أود له المقاما

وعاش الشاعر ابن مرج الكحل هذه المأساة بكل أبعادها ورأى أنها أذهلت الناس حتى عن تبادل كلمات المجاملة وجعلتهم كالسوائم يقنعون بموقف الاستسلام المطلق أمام تيار الأحداث الجارف فيقول(29):

ولاسيما في فتنة مدلهمة فلا أحد فيها أخاه يشمت

وكان قضاء صمتنا عنه واجب وقد سلم الأحداث من كان يصمت

كما دفعت بآخرين إلى حياة الزهد واعتزال الناس والبحث عن قوة خفية لاتقهر هي قوة الله تعالى فضج الشعراء متوجهين إليه باستغاثاتهم ومنظوماتهم الزهدية والنبوية لعلهم يجدون في عملهم هذا مرفأ آمنا من صروف الدهر ومزالق الحياة.

ومن هذه البواعث تفشي حياة المجون والاستهتار بالقيم والتحلل الخلقي مما جعل هؤلاء الشعراء يحسون بمسؤليتهم الدينية وواجبهم الخلقي تجاه أنفسهم وتجاه مجتمعهم فانفعلت ضمائرهم وتأججت عواطفهم الإسلامية وأخذوا يعملون جهدهم على وعظ الناس وإرشادهم ودعوتهم إلى نبذ الدنيا وملذاتها ومافيها من منافع قليلة زائلة يقول ابن عبيد يس النفزي : ((والمناكير اليوم في ترك قتال الكفار والإعلان بالخمر والزنا من أهل الجاه في الدنيا والإصرار بهما منكر عظيم وألم للصالحين مؤلم))(30) كما ألف الفقيه أحمد بن محمد ابن عبد الرحمن ت سنة 699 هـ كتابا يشتمل على مثالب أهل غرناطة(31) وهناك دوافع وبواعث آنية بسبب مرض أو فقد عزيز من ولد أو مال أو نكبة من نكبات الحياة قد تتحول بصاحبها إلى زاهد حقيقي أو متعبد على الأقل وقد رأينا في هذه الحياة نماذج كثيرة من هؤلاء الذين أطلقوا العنان لأنفسهم تفعل ماتشاء ولكن حينما طرق باب أحدهم حادث من حوادث الدهر تحولوا من حياة اللهو والطيش إلى حياة العبادة والوقار وعافت نفوسهم ذلك اللون اللاهي من الحياة التي ألفوها وماذلك إلا لأن عنصر الإيمان والخير لاينطفئ تماما في نفس المؤمن صحيح أنه قد تحيط به عوامل عنيفة ومؤثرات قوية تجعله ينحرف ولكنها تكون بمثابة غشاء رقيق يستر الإيمان العميق ولايذهب به حتى إذا حانت لحظة الصحو انقشع ذلك الغطاء وزال الغشاء وظهرت عناصر الإيمان راسخة قوية قد زادتها تجارب الحياة رسوخا وعمقا (32) .

كما أن التيارات الإجتماعية والفكرية والسياسية قد تتحول إلى زهد وتدين وقد تتحول إلى عنف ولكن هذا لايعني بالضرورة أن يكون الزهد نتيجة هزات عنيفة أو اضطرابات سلبية بل كثيرا مايكون الزهد نابعا من

ذات الشخص وبدون سبب خارجي سوى التدين والتاريخ يسوق لنا نماذج من هؤلاء الزهاد الذين ترفعوا عن كل مسلك مشين مثل الزاهد : أبي عمران المارتلي(33) قال ابن الزبير عنه : ((وهو المعروف بالفاضل أحد أفذاذ الرجال ممن جمع الله له بين العلم والعمل زاهد ورع عابد منقطع القرين استخلص بيته فرارا عن الخلق بدينه وثقة في الانقطاع إلى الله سبحانه وتعالى بعقد يقينه كان لايخرج من داره إلا إلى مسجده ويثقل عليه اجتماع أحد إليه وكان مع مزية الدين من أحسن الناس خلقا وأهذبهم طبعا يزوره الملوك ويتبركون به لم يقبل هدية من سلطان ولا أمير على كثرة وصولهم إليه (34).))

وعلى الرغم من عدم حصولنا على شيء ذي بال من شعر المارتلي إلا أنه هناك بعض القطع التي تمثل هذا الجانب من حياته منها هذه الأبيات التي يصور فيها حيرة نفسه وترددها وصراعها مع النظام الزهدي المفروض عليها والذي يلجمها قسرا عنها أن تنساق في طريق المغريات وهي ترفض هذا النصح الذي لاينسجم مع تكوينها وطبيعتها فتلجأ إلى المماطلة حينا والتذبذب بين الخير والشر والقول والفعل وبين النصح وعدم القبول والزجر وعدم الإرعواء والغفلة ويقظة الموت إنها أمور تمثل حيرة النفس البشرية هذه الحيرة التي ضلت تنتاب الشاعر حتى بعد الموت إلى أين سيذهب به بعد هول الحشر والحساب وهي أبيات صادرة عن دوافع ذاتية خالصة وإيمان حقيقي حيث يقول(35) :

إلى كم أقول فلا أفعـــــل وكم ذا أحوم ولا أنزل ؟!

وأزجر نفسي فلا ترعوي وأنصح نفسي فلا تقبل ؟!

وكم ذا أؤمل طول البقـاء وأغفل والموت لايغفل؟!

أمن بعد سبعين أرجو البقا وسبع بعدها أتت تعجل؟!

كأن بي وشيكا إلى مصرعي يسار بنعشي ولا أمهل

فياليت شعري إلام المصيـر وماذا أجيـــب إذا أُسأل

فياليت شعري بعد السؤال وطول الحساب لما أنقل

وياعجبا عند ذكري لهذا وعلمي بذاك ولا أذهل

وهذه أبيات أخرى تحمل معنى التحذير والتذكير ممزوجا بروح الوعظ وعدم الآسى والندم على ما فاته فيقول(36) :

لاتبك ثوبك إن أبليت جدته وابك الذي أبلت الأيام من بدنك

ولاتكنن مختالا بجدتـــــــه فربما كان هذا الثوب من كفنك

ولاتعفه إذا أبصرته دنسا فإنما اكتسب الأوساخ من درنك

والمارتلي لم يبال بالدنيا ولا بأهلها نلمح ذلك في أبياته التي نحس فيها شيئا من الإغراق في الاتكال والسلبية وعدم التفاعل مع المجتمع ولكنها من ناحية أخرى تمثل منتهى الطاعة لله والإيمان والرضا بقسمته

مقرونة بالعمل اليومي والسلوك العام للشاعر الذي كان صرورة لم يتزوج , بل كان معتكفا في بيته أو مسجده يقتات من عمل يده ومن أثمان كتبه بعد أن أسن وضعف عن التدريس ويكفي أن شعره في الزهد يمثل خطرات نفسية تشع أصالة وذاتية يقول (37) :

سليخة وحصيـر لبيت مثلي كثيـر

وفيه شكر لربـي خبز وماء نميـر

وفوق جسمي ثوب من الهواء ستيـر

قررت عينا بعيشي فدون حالي الأمير

إن قلت أني مقـل إنـي إذا لكفـور

وهذه النظرة التي تمثل التخلي عن الدنيا ومتاعها يرددها شاعر آخر هو ابن مهيب اللخمي الذي خمس عشرينيات الفازازي حيث يقول(38):

أملي من الدنيا المباحة كسرة أبقي بها رمقي ودارا نابية

قد أضرب الزمان عن سكانها فكأنها في القفر دار خالية

والشاعر ابن السكان يردد المعنى نفسه فيقول(39) :

أيا خالق الخلق لي مطلب ومالي سبيل لأسبابه

غذاء حلال بلا منـــة وثوب وبيت لأثوي به

والحقيقة أن نظرة المارتلي إلى الدنيا بأنها أمل خادع ومتاع قصير قد ينتهي في أي وقت جعله ينظر إليها بهذه النظرة ويقنع منها بكل شيئ فيقول(40):

قنـعت من الدنيا بقوت مبلـغ فلست أبالي ما أخلف من خلفي

إذا كنت لا أدري هل أُمهل ساعـة كفاني مايكفي ودون الذي يكفي

مع أننا نجد في أبيات أخرى للمارتلي أنه لم يعتزل الناس رغبة في الإعتزال ولكن لفسادهم وتجنب شرورهم وصيانة لدينه ونفسه يقول(41):

اسمع أخي نصيحتي فالنصح من محض الديانة

لاتقربن من الشهـا دة والوساطة والأمانـة

تسلم من أن تعزى لزو ر أو فضول أو خيانـة

وبرغم هذه النظرة المتشائمة للحياة والناس من قبل المارتلي فإن الزهد لم يكن دائما إنزواء أو هروبا من الحياة وأهلها ولكنه كثيرا مايكون نابعا من ذات الشخص, فهذا الشيخ أبو الفضل بن محمد القرشي القرطبي ت 662هـ ، بغضت له الدنيا وخرج من بلده صغيرا مهاجرا إلى الله مقبلا على عبادته بعد أن خلف مالا وعقارا له كرامات مشهورة ذكرها معاصروه (42).

وابن جبير صاحب الرحلة لم يكن زاهدا في أول أمره ولامنقطعا عن دنيا الناس بل كان يكتب عن الولاة ويأخذ عطاياهم ونال بذلك دنيا واسعة وقد ساق المقري في سبب تنسكه أنه كان يكتب للسيد أبي السعيد عبد المؤمن صاحب غرناطة فاستدعاه لأن يكتب عنه كتابا وهو على شرابه فمد يده إليه بكأس فأظهر ابن جبير الانقباض وقال ياسيدي ماشربتها قط فأقسم عليه ليشربنها وملأ له الكأس سبعا ولما فرغ من شربه ملأ له الكأس سبع مرات دنانير فأضمر ابن جبير أن يجعل تلك الدنانير كفارة لشربه فذهب إلى الحج بتلك الدنانير(43) فإذا صحت هذه القصة فإن مبعث الزهد عند ابن جبير هو إحساسه بالذنب وإن كنا لم نعدم هذا الجانب الخير في شخصيته فهو على مايبدو من أبياته التالية كان على صلة بأهل الزهد حيث نراه يخاطب الشيخ الزاهد أباعمران المارتلي بقوله(44):

أباعمران قد خلفت قلبـــــي لديك وأنت أهل للوديعة

صحبت بك الزمان أخا وفاء فها هو قد تنمر للقطيعة

كما أن السلوك الشخصي لابن جبير تجاه الناس من حرصه على قضاء حوائجهم والسعي في مصالحهم وإيناس الغرباء منهم يجعلنا نرجح أن زهده لم يكن نتيجة ظرف خاص وإنما هذا الظرف سهل له سلوك الطريق والإنقطاع إلى الزهد كما ان أشعار ابن جبير المتبقية وجدناها تعالج كثيرا من قضايا الحياة وسلوك أهلها وأخلاقهم كالحرص والإغترار بالأمل والتساهل في أمور الدين كما في أبياته التالية التي يتعجب فيها من الإنسان الذي يستكين للدهر ـ المليء أو الحافل بالمكر والخداع لمن يركن إليه ـ إذا انفسح له بشيئ من الأمل فيدفعه ذلك إلى الحرص والشح وهو لايدري أن ذلك تضييع للعمر فيما لاطائل من ورائه يقول(45) :

عجبت للمرء في دنياه تطمعـــــه في العيش والأجل المحتوم يقطعه

يمسي ويصبح في عشواء يخبطها أعمى البصيرة والآمال تخدعـــه

يغتر بالدهر مسرورا بصحبتـــــه وقد تيقن أن الدهر يصدعـــــه

ويجمع المال حرصا لايفارقـــــه وقد درى أنـــــه للغير يجمعه

وأسوأ الناس تدبيرا لعاقبـــــــة من أنفق العمر فيما ليس ينفعــه

ولابن جبير تجربة مع الناس يمكن أن نعدها مضمونا من مضامين الزهد في مجال الأخلاق أو الصحبة والصداقة ولكنها كانت تجربة قاسية ومؤلمة مما جعله يصدر أحكاما تقوم على أساس الحذر من جميع الناس وهي تجربة تقوم على خبرة فالرجل تولى كثيرا من المناصب وتقلب في وظائف الدولة كما سافر أسفاراً كثيرةً خبر من خلالها أخلاق الناس وهذه أمور لم تتهيأ للكثيرين سواه لهذا قد يكون أكثر دقة في أحكامه عندما يرسم صورة لصديقه لأنه كالجزار حسن القول سيئ الفعل فيقول(46) :

لي صديق خسرت فيه ودادي حين صارت سلامتي منه ربحا

حسن القول سيئ الفعل كالجز ار سمى وأتبع القول ذبحـــــا

أو عندما يقول(47) :

صبرت على غدر الزمان وحقده وشاب لي السم الزعاف بشهده

وجربت إخوان الزمان فلـــم أجد صديقا جميل الغيب في حال بعده

وكم صاحب عاشرته وألفتـــه فمادام لي يوما على حسن عهده

وليس ابن جبير وحده الذي بغضت له الحياة بسبب سلوك أهلها بل هناك شعراء كثيرون شاطروه هذا الأمر كالشاعر ابن قسوم والشاعر أبو عبد الله بن محمد الأنصاري الشاطبي والفازازي الذي يقول(48):

لايخدعنك ظاهر من باطـن حتى يصدقه لك البرهـان

كم ظاهر قد غر وهو مزور ولربما خدع القلوب لسان

ويقول (49):

زهدت في الخلق بعد تجربة وماعلى من يزهد فيهم درك

فهؤلاء الشعراء وغيرهم قد وقفوا من الناس بعامة ومن أصدقائهم خاصة مواقف الحذر والريب خوف مساوئهم وحفاظا على دينهم وصيانة أنفسهم مما فيه الناس من مظاهر النفاق .

ومع هذا التشاؤم من علاقات الناس إلا أننا نجد منهم من أجهد نفسه وحاول أن يصلح ولكن النفوس كانت ميتة لا أمل في إحيائها فهذا ابن جبير رغم نظرته المتشائمة كان يقبل عثرات الأصدقاء ويصفح عن زلاتهم ويتمنى لو بدأوه بالزيارة ليكون لهم فضل السبق عليه فيقول(50):

وإني لأوثر من أصطفـــي وأغضي عن زلة العاثر

وأهوى الزيارة ممن أحب لأعتقد الفضـل للزائـر

وعلى كل فإن معاني الزهد أو الشعر الزهدي تدور كلها حول ذكر الخطايا والذنوب ولوم النفس وتأخر التوبة ومجيئ نذير الشيب والغرور بالدنيا كما تدور حول التأمل والإعتبار بآيات الكون والصبر على المكاره ومواجهة الصعاب والرضا والقناعة وحسن الظن بالله بعد الموت وسنتاول بعضا من هذه الموضوعات في مايلي :

موضوعات شعر الزهد

أ-التأمل والاعتبار:

إن التأمل في الكون والاعتبار بآلاء الله تعالى موضوع لصيق بالزهد ويتجلى واضحا في شعر الكونيات ذلك الشعر المتدبر في الكون الخاشع لجلال الله وعظمته والذي طلب منا المولى سبحانه أن ننظر فيه بعين الاعتبار والتدبر فقال : (قل انظروا ما في السموات والأرض)(51) وقال:(أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت)(52) هذه المعاني جعلت الشاعر المسلم يتاملها ويمعن النظر فيها فهذا الشاعر الزاهد أبو محمد عبد الله بن الوزير الطبيري الشريشي يقول إن مانراه ونشاهده من هذه الكائنات عبارة عن صفحات في طيها رسائل تقود من يتأملها ويتصفحها إلى أن كل شيئ ماعدا الله سبحانه وتعالى فان وباطل حيث يقول(53):

تصفح صفاح الكائنات فإنها من الملأ الأعلى إليك رسائل

وقد خط فيها إن تأملت خطها (ألا كل شيء ماخلا الله باطل)

ولما نزل المطر بعد احتباس طويل طلب الناس من الشاعر ابن الجنان أن يقول في ذلك غير أن الشاعر لم ينظر إلى المطر على أنه ظاهرة من الظواهر الطبيعية تتكون نتيجة تكثف السحب على البحار , ثم تحملها الرياح فإذا قابلت هواء باردا سقط المطر,بل نظر إليها من منظور إسلامي متأمل متدبر مقتبسا كثيرا من معاني الآيات القرآنية فالمطر من الغيبيات التي لايعلم وقت نزولها إلا الله ونحن مهما أثنينا عليه سبحانه لانستطيع أداء واجب الشكر يقول: بسيط(54):

الغيث في الغيب لايدري به أحد إلا الإله الذي يمني به السحبا

سبحانه وتعالى لانحيط بمـــــا أحاط علما ولاندري بما حجبا

لوجهه الحمد لانحصي الثناء لــه ولانطيــق له شكرا كما وجبا

أحيا البلاد وأرواهـــا برحمتـــــه فاهتز هامدها من بهجة وربـــا

ولم يدع من قنوط في النفوس ولا يأس ولاخيب الراجيه ماطلبا

فضلا من الله أولانا الجميل بـــــه فانظر لآثار رحماه ترى عجبا

والفازازي تناول نفس الموضوع ولكن بطريقته الخاصة فهو يقدم الشكر والثناء أولا لمن أنزل الغيث وأحيا موات الأرض, ثم يصف ماكسا وجهها من الجمال والجلال الظاهر حتى كأنه جوهر نثر في جنباتها يقول :

نعم الإله بشكره تتقيـــــــد فالله يشكر في النوال ويحمد

مدت إليه أكفنا محتاجـــــة فأنالها من جوده ما نعهـــــد

وأغاثنا بغمائم وكافـــــــة بالبشر تبرق والبشائر ترعد

حملت إلي ظمأ البسيطة ريه ويد الغمام على الثرى لاتجحد

فالجو براق الشعاع مفضض والماء فياض الآتي معسجـد

والأرض في حلى الربيع كأنما نطف السحاب لؤلؤ وزبرجـد

والروض مطلول الخمائل باسم والقضب ناعمة المعاطف ميد

مجت بقايا الري في نوارهـــا فكأنمـــا هـــي جوهـــر متبدد

ثم يعود بعد ذلك إلى التأمل والتفكير فيقول هل هذه القضب التي تتمايل يمينا وشمالا والأغصان التي تعلو وتسفل تفعل ذلك بسبب سكرها أم بسبب شكرها؟

وهنا تتباين النظرات فأصحاب الفطرة السليمة يرون أنها تقوم وتقعد إجلالا لخالقها وباريها وأصحاب الفطرة السقيمة يقولون : أنها تتحرك وتنثني من تلقاء نفسها مع وضوح الدليل الذي لايترك شكا لمستريب ولكن كل يصرح حسب حاله ومقاله (55) :

تاهت عقول الناس في حركاتها ألسكرها ام شكرها تتـــأود

فيقول أرباب البطالة تنثنـــــــي ويقول أرباب الحقيقة تسجد

فإن اهتديت إلى الصواب فإنهـــا في حق خالقها تقوم وتقعـــد

ومنها :

ياليت شعري والدليل مبلغ من أي وجه يستريب الملحد

من ذا الذي يرتاب ان إلهه فـــرد وألسنة الجمال توحد

كـــل يصرح حاله ومقاله أن ليس إلا الله رب يعبـــــد

وله في المعنى نفسه قوله(56):

فمن يحي البسيطة بعد موت ومن يهمي بقدرته الغمام

تأمل صنع ربك تلقى فيـــــه عجائب دون رؤيتها لثـــام

إن كل ماهو صامت يخاطب العقول بدون كلام ويكتب للألباب بغير قلم بأن الله هو الرب الذي يجب أن يتوجه إليه الناس للعبادة فهو المستحق لها يقول:

ولاحت في الوجود له شهود ليس تتهـــم

مخاطبة ولا كلـــــــم مكاتبة ولاقلـــــــم

لقد نادت مصرحة بأن الله ربكـــــــم

فياعجبا أيعصي الله من بسطت له النعم

ب- ذكر الذنوب ولوم النفس:

وفي هذا اللون يخاطب الشاعر نفسه مجردا منها شخصا يقدم له النصح والإرشاد ، وقد يخاطبها مباشرة طالبا منها ان تكف عما فرطت في جنب الله وأن ترعوي وتزدجر عن ارتكاب الخطايا واقتراف الذنوب والمعاصي والاغترار بالآمال الخلابة , وعليها أن تذكر الموت والبلى وماينتظرها في مثواها الاخير الذي ستنقل إليه لامحالة فتحاسب على ما قدمت من خير واجترحت من شر وقد سلك الشعراء في هذا الموضوع مسالك مختلفة في تأنيب نفوسهم ولومها فأبوالعباس ابن الغماز(ت 693 هـ) يقدم اللوم في شكل استفهام ثم تحسر على الماضي الذي لامجال لرده ثم يندب نفسه التي أطاعت هواها ولم تصغي لوعظ واعظ أو نصح ناصح يقول(57) :

أما آن للنفس أن تخشعا أما آن للقلب ان يقلعـــــا

أليس الثمانون قد أقبلـت فلم يبق في لذة مطمعـــــا

تقضى الزمان ولا مطمـع لما قد مضى منه أن يرجعا

وياويلتاه لذي شيبـــــــة يطيع هوى النفس فيما دعا

وبعدا وسحقا اذا غـــــدا يسمع وعظــا ولن يسمعا

وابن حوط الله (توفي سنة 612 هـ) يجرد من نفسه شخصا يخاطبه مؤكدا أن كل امرئ بما كسب رهين ولايليق بالمرء أن يغتاب الناس وهو يرتكب أفعالهم لأن ذلك منتهى الذنب يقول (58) :

أتدري انك الخطاء حقــا وانك بالتي تأتي رهيـــن

وتغتاب الألى فعلوا وقالوا وذاك الظن والإفك المبين

أما أبو البركات فيسكب الدمع غزيرا مدرارا على الزمن الذي ولى ولم يحل منه بطائل, ونادى على نفسه بالويل والثبور ,لقد انقضى العمر وولى الشباب ولم يعلن توبته عما اكتسب من ذنوب واقترف من آثام ولكن يظل أمله متعلقا بعفو الله تعالى الذي وسعت رحمته كل شيئ إنه رب كريم لايخيب عنده رجاء الراجين ولا طلب المنيبين التائبين إليه يقول (59) :

ياصاح خل لعينـــي تبكي بدمع سكوب

مضى الزمان وولى ولم أفارق عيوبي

وصار ليلي نهــارا أعني بذاك مشيبي

ناديت في الحين نفسي وقلت ويحك توبي

فالعمـــر لاشك فان فحق لي بالنحيب

والعفو منك إلهي أرجو محو ذنوبي

فأنت رب كريـم بكل عبد منيـــب

فلاتخيب رجائي ياسيدي ياحبيبي

وابن الجنان يطلب من نفسه ان تتذرع بالصبر الجميل وتدين بالتقوى لتصبح في عداد من قال الله فيهم (ومن يتق الله يجعل له مخرجا) فيقول(60):

وميلي إلى الصبر الجميل فإنه لينصر من للصبر مال وعرجا

وديني بتقوى الله يجعل بلطفه لكم من كل المضايق مخرجا

وإذا كرهت الأمر نفارضي وسلمي ففي طيه المحبوب يأتيك مدرجا

فهذي سبيل إن اهتديت لقصدها وجدت إلى مرقى السعادة معرجا

وهذه القصائد تصدر عادة عن الزاهد او عن الشاعر الذي يستيقظ ضميره في ليل السفاه والرفاه فيظهر الشعر على شكل عتاب نفسي بديع كما في قول سهل بن مالك (559-639 هـ)الأتي (61):

نهارك في بحر السفاهة يسبح وليلك في نوم الرفاهة يصبح

وفي لفظك الدعوة وليس إزاءها من العمل الزاكي دليل مصحح

إذا لم توافق قولة منك فعلـــــة ففي كل جزء من حديثك تفضح

تنح عن الغايات لست من أهلها طريق الهوينا في سلوكك أوضح

إذا كنت في سن البني غير صالح ففي أي سن بعد ذلك تصلـــــح

إلى كم أماشيها على الرغم غاية يصيب المزكي عندها والمجرح

ومنها:

عسى وطرمونق فألتمس الرضا وأقرع أبواب الرشاد فتفتح

فقد ساء ظني بالذي أنا أهلـــه وفضلك يا مولاي يعفو ويصفح

وقال الرعيني وسمعت بلفظه (بمرسية) مخمسة طويلة في تسبيح الباري تعالى وقد يجيئ هذا اللون في شكل مواعظ ونصائح عامة لايعني بها الشاعر نفسه بل يوجهها إلى الآخرين لينبه الجاهل ويوقظ الغافل,إلى

أن الله يراقب أعمالهم ويعلم سرهم وإعلانهم , مما يدفعهم إلى محاسبة أنفسهم والإقلاع عن الآمال الخادعة والتعجيل بالتوبة قبل حلول الأجل كما في أبيات الشاعر ابن الأبار الآتية(62):

دنياك للأخرى سبيل سابـــــل فاعمل لها إن الموفق عامل

واحرص على نيل السعادة جاهدا بالبر والتقوى فنعم العامل

وأعد زادا للرحيل فإنمـــــــا أيام عمرك لوعقلت مراحل

إياك والأمل الكذوب فربمـــــا أودى بمطرور الغرور الآمل

واسبق مشيبك بالمتاب حزامة فلـــه حلول عاجـــل ا آجل

ومن هذا القبيل أبيات الفازازي الآتية والتي كان يلقيها بين يدي دروس الوعظ ابن الحجام, ولابد أن الفازازي لم يرد نفسه بهذه المواعظ , بل أراد الآخرين أيضا أن ينتبهوا إلى أن الموت قريب , وألا يغتروا بطول الأمل ويعرضوا عن داعي الخير يقول(63) :

فيا من تبعد الدنيا به والموت مقتـــرب

أجل نظرا تفد عبرا ولايقعد بك الطـــــلب

لأمر ما وأمر مـــا تشيب وتطلع الشهب

تمر بأذنك الذكرى ولاخـــــوف ولا أدب

وكيف ترى حقيقتها ونورالعقـــل محتجـب

رقيب الموت مطلـع عليك وليس يرتقـــــب

تيقظ أيها الساهـــي فخلف حياتـــك الطلـــب

وهذه أبيات للمارتلي يبدو عليها التلوم النفسي واستشعار الذنوب واحتقار الذات بسبب تقصيرها في جنب الله فهو موسى بن عمران المسيئ وليس موسى بن عمران الكليم(64).

تحفظ بدينك لاتبتذلـــه ولايلف عرضك عرضا كليمـــا

وعج عن الذنب لاتأتـــه وبادر لإصلاح مامنك ليمـــــا

فأنت ابن عمران المسيئ ولست ابن عمران موسى الكليما

ولابن مرج الكحل قصيدة تقع في حوالي ستة عشر بيتا يتندم فيها على ذنوبه ويذكربعض الواعظين ويستوهب منهم الدعاء يقول(65):

اذكر ذنوبك أيها ذا النـاســـي واستغفرن الله رب النـــــاس

واقرع على مافاتك سنك نادما واكرع من العبرات في أكواس

وانفض من الدنيا يديك ولاتكن تعني بهذه الأربـــع الأدراس

ومنها:

ياذا الذي أهدى لنا تحف الهدى وأعاد ذكرى الدين بعد تناس

حيتك نفس صبة بتحيـــــــة وردت عليك نفيسة الانفـاس

ج- الصبر على المكاره وانتظار الفرج:

إن الإنسان لايخلو في حياته من أحد أمرين يسر أو عسر نعمة أو ابتلاء واليسر لايدوم وكذلك العسر, ومثل هذا حال النعمة والإبتلاء ومادامت هذه هي سنة الحياة فعلى المؤمن أن يواجه ذلك بالشكر على النعمة والصبر على المصيبة , وهذا هو الذي يليق بالإنسان المؤمن الراضي بقضاء الله وقدره فلايعترض ولايجزع وقد تناول أبو زيد الفازازي هذا المعنى في أبياته التالية التي يدعو فيها العيد المؤمن إلى عدم الفزع والجزع لما ينتابه من مكروه لانه عبد والعبد لا اعتراض له على مولاه ويحاول الفازازي أن يأتي بالشيئ وضده ليبعث السلوى في نفس الإنسان الكئيب الخائف من تصاريف القدر فقد تكون الصحة عقب المرض والشدائد يعقبها الفرج والعسر يتلوه يسران أو بين يسيرين كما في قوله تعالى(فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا) واليقظة تعقب النوم إذا فلا مجال للقلق وا ليأس في حياة المؤمن يقول(66):

لاتجزعن لمكروه تصاب بـــــه فقد يؤديك نحو الصحة المـــرض

واعلم بأنك عبد لافكاك لـــــه والعبد ليس على مولاه يعتـــرض

فسلم الأمر تسلم في عواقبـــه وارض القضاء فقد فاز الذين رضوا

وإن عدت أزمة فاصبر لهـــا إن الشدائد تأتي ثم تنقـــــــرض

والعسر يتلوه يسر إن صبرت له ضدان هذا وهذا عندنا عـــــرض

والعيش كالحلم أضغاث منوعة وسوف يلحق بالأيقاظ مغتمـــــض

يامن تسخط مايجري القضاء به كم أنت في سنن الهلاك ترتكـــــض

إن الحسرة والحزن والقلق لاتجدي شيئا أمام أمور لايمكن دفعها أو ردها ولكن الصبر الجميل يوصل إلى مرفأ الأمان وبر السلام.

إن ارتماضك مما لادفاع لـــــه شؤم عليك فكم ذا انت عليك ترتمض؟!

سفين صبرك نحو الأمر يدفعها فاصبر قليلا فمن قدامك الفـــــرض

ثم يسوق قصة سيدنا يوسف عليه السلام الذي كان مثالا رائعا على التجمل بالصبر وتحمل الشدائد ومواجهة أذى الناس والزمان عندما آثر السجن إرضاء لخالقه فكان جزاؤه أن سهل الله أمره وجمع شمله بأهله وأثنى عليه في كتابه (لقد كان في قصصهم عبرة) يقول :

في شأن يوسف إن فكرت معتبر وهو الدليل الذي مافيه معترض

لاقى الشدائد بالتسليم منتظـــرا لطف الإله ولم يظهر له مضض

إلى أن قال:

فجمع الشمل رب كان فرقه وليس لله في الحاليـن معترض

ومن يكن تاركا شيئا لخالقه فسوف يرضيه من متروكه عوض

ويضرب مثلا للصابرين المنتظرين فرج الله تعالى المؤمنين بقضائه من نفس القصة فيقول(67):

فيعقوب لاقى الكرب في يوســف ثمانين حولا والحنين قرين

فلما تمادى بعده حين بعـــــــده تلافاه من أنس التقرب حين

فدن بالرضا فيما يجري به القضاء فإن الرضا للصالحات ضمين

وهذه أبيات اخرى في نفس الغرض يزاوج فيها الشاعر بين الشيئ وضده وهذه المزاوجة وربطها بالقدر لاتعني في نظرنا استعلاما في حياة المسلم بل هي أمر يمده بالأمل من خلال المواقف والمشاعر المتابينة في حال الضعف وفي حال القوة في لحظات الهبوط والنقص والعجز, وفي لحظات الإرتفاع والسمو والإقتدار فحياة المؤمن وسط لابطر ولا ضجر ,يقول الفازازاي :

إذا نابتك للخطب شـــــــدة فبعد اشتداد للحوادث ليــن

ولاتيأسن من فرحة بعد ترحة فقد تخذل الأيام وهي تعين

والشاعر ابن الجنان لايبالي بالشدائد والصعاب حتى ولو سل عليه الدهر حسامه وأسرج لحربه خيله مادام القدر مسالماً له يقول(68):

إذا سالم المقدور والله لم أبل وإن كان طِرْفُ الدهر للحرب مسرجا

ولي ثقة بالله اعلم أنهـــــا تسهل صعبي إن زماني حرجـــــــا

رجائي رجاء عبد تأدب دائما لصدق الرجا في ربه وتخرجـــــــا

فالرجاء عنده يغلب اليأس ولهذا يواجه المصاعب بعزيمة لاتلين وصبر لايعرف الملل , لثقته في عاقبة ما ينتنظره فيقول(69):

إذا ماعلا يأس يغالب لي الرجـــا ويحجب من ريا الرضا ماتأرجا

سللت على اليأس الرجيم عزيمتي حساما فألقته قتيلا مضرجـــا

وقلت لنفسي لاتراع لأزمـــــــة فكم نفس الرحمن كربا وفرجا

وميلي إلى الصبر الجميل فإنـــه لينصر من للصبر مال وعرجا

ويقول في نبرة المؤمن المتيقن في وعد الله في تفريج أزمات عباده وكشف كروبهم (70):

سأصبر حتى ينجز الله وعده ولابد للرحمن أن ينجز الوعـــــدا

ألم يعد الله الكريم بفضلـــه مع العسر يسرا ينجح السعي والقصدا

ومازال لطف الله يفرج أزمة إذا استصعبت عقدا واستحكمت شـدا

فيا من له الألطاف تأتي خفية تدارك برحماها ومنتها العـــــبدا

وقد وثقت نفسي بوعدك سيدي وقد علقت منه الأذمة والعهـــــدا

واليأس من روح الله وعدم انتظار الفرج منه يقطع الأمل الذي يتعلق به المؤمن فتظلم في وجهه الحياة ويهيم في طرق الحيرة وسبل القنوط يقول ابن الغماز(71):

ياصاحب الهم إن الهم منفرج كم من أمور شداد فرج الله

اليأس يقطع أحيانا بصاحبـه لاتيأســـن فإن الفاتح الله

إن الشعور بما قدر سوف يكون يبعث الطمأنينة والهدوء في نفس المؤمن ويمده بالقناعة والرضا وانتظار اليسر بعد العسر والفرج بعد الشدة يقول (72):

اشكر لربك وانتظر في إثر عسر الأمر يسرا

واصبر لربك وادخر في ستر ضر الفقر أجرا

فالدهر يعثر بالورى والصبر بالأحرار أحرى

د-عزة النفس وقوة الإرادة :

إن الإنسان المؤمن عزيز النفس موفور الكرامة لاينحني للأحداث مهما اشتدت ولايخدعه تهافت الناس على من بيديه متاع الدنيا الزائل فيميل ضميره عن الحق إلى الهوى إلا أن صلة المرء بمجتمعه وعلاقته بأفراده قد تذهله عن مصدر العطاء الأصيل وباب الرجاء الذي لايرتج إلى أبواب الناس ولكن ذلك لايؤثر في سلوك المؤمن الصادق الإيمان العزيز النفس القوي الإرادة ولقد حاول الشاعر أبو بكر محمد بن عبد الله بن خطاب المرسي أن يجد هذا المعنى في الأبيات الآتية فيقول (73):

أبصرت أبواب الملوك تغص با لراجين إدراك الغنـــــى والجاه

مترقبين لها فمهما فتحـــــت خروا بأذقان لهـــــم وجبـــاه

فأنفت من ذاك الزحام وأشفقـت نفسي على أنضاء جسمي الواهي

ورأيت باب الله ليس عليه مـــن متزاحم فقصدت بـــــــاب الله

وتخذته من دونهم لي عـــــدة وأفقت من غي وطـــــول سفاه

فهو يرى أن الأرزاق مقسومةلانستطيع زيادتها أو نقصها فلماذا نتدافع على أبواب من بأيديهم شيئ منها؟ ولماذا السخط على حظنا منها؟ إننا يجب ان ننظر إلى من هو دوننا فنشكر نعم الله علينا يقول(74) :

اقنع بما أوتيته تنـل الغنـــى وإذا دهتك ملمـــــــة فتصبر

واعلم بأن الرزق مقسوم فلو رمنا زيادة ذرة لـــــــم نقدر

والله أرحم بالعباد فلا تســـل بشرا تعش عيش الكرام وتؤجر

وإذا سخطت لضر حـــالك مرة ورأيت نفسك قد عدت فاستبصر

إن رجاء المخلوق لمخلوق مثله سراب خادع وإن تحقق لايخلو من منٍّ ولا أذى , إذا على المسلم أن يعلق رجاءه بقاضي الحاجات يقول الفازازي(75):

ثق بالإله فإنـــــه للواثقين به قريب

ودع العبيد فمنتهى إحسانهم ظن يخيب

إن تنج من مكروههم لم تنج من لمز المغيب و الفكرة نفسها يرددها ابن السكان في قوله الآتي(76):

من كان يرجو الخلق في حاجاته خاب الذي يرجى وخاب المرتجي

فاقصد إله الخلق إما حاجـــــة عرضت فباب الله غير مرتـــــج

ويدعو إلى الاخذ بالأسباب التي بها تدرك الحاجات ويتحقق العيش الرخي ألم يدع الله سبحانه وتعالى عباده للسعي في مناكب الأرض والأكل من رزقها في كثير من آياته المحكمة ؟! يقول (77):

أزكى الخليقة خلقا عند خالقهم ذو حرفة من سؤال الناس تغنيه

وخير ماتصف المرء التقي به في دهره ترك ماليس يعنيه

والفازازي يدعونا إلى أن ننفض أيدينا من الناس جميعا فنحن وإياهم عبيد لرب واحد فلماذا نفتقر إليهم ونعقد عليهم الآمال ونطلب ممن نحن وإياهم في العجز سواء ؟ فيقول(78):

وانفض يديك من العباد فكلهم عجز يحل وأنت جهلا تعقد

فهم وأنت عبيد مولى واحد فدع العبيد فليس إلا السيد

ومادام البشرعاجزين متساوين في العجز فيجب أن نعلق رجاءنا بالله إذا عرتنا ملمة أو نابتنا نائبة يقول ابن الجنان(79):

علق رجاءك بالإله فإنـــه ماخاب في فضل الإله رجاء

والجأ إليه إذا عرتك ملمة يعصمك إيواء له ولجـــاء

أما الزاهد أبو الحسن عبدالله بن محمد المعروف بابن قبوش أو قبوج وكان من النساك فيرى أن هذه الدنيا عرض زائل ومتاع إلى حين فاستغنى بما عنده واتجه بهمته إلى الباقيات الصالحات بل إنه ذهب إلى أن هذه الدنيا من ملذات البهائم ازدراء لها وتحقيرا لشأنها يقول (80) :

غنيت بما عندي ومالي لاأغنى وأعرضت في قصد عن العرض الأدنى

إلى الملأ الأعلى علوت بهمتي فرافقت مايبقى وفارقت مايفنـــــى

تركت للذات البهائم أهلهـــا وهمت بما يهنى به عالم المعنـــى

وفي الاتجاه نفسه يحذر الشاعر ابن نوح أبو القاسم محمد البلنسي من غشيان أبواب الأغنياء الذين لايقصدون لشيء إلا لغناهم وقد تجلببوا بملابس العظمة وأردية الكبيرياء لأن الله حذر من أمثالهم فيقول(81):

لاتغبطن كل موفور الغنى مشتملا ملابس العظمـــة

يلمز لا لسبب إلا بمـــا يحويه من اكياسه المفعمة

فالله قد اخبر عن أمثالـه وقال في آياته المحكمـــة

((يحسب أن ماله أخلده كلالينبذن في الحطمة))

هـ - حسن الظن بالله تعالى :-

وحسن الظن بالله يعني حسن العمل لأن الإنسان إذا أحسن الظن أحسن العمل وإلا أصبح ذلك من باب التواكل والكسل وقد تناول الشعراء زهادا وغير زهاد هذا الموضوع في أشعارهم ولكنه يرد عادة في شكل مقطعات صغيرة وأبيات مفردة ويرجع ذلك إلى أن هذه المقطوعات أو الأبيات خلاصة لتجارب الشاعر ترد مكثفة ولكن وراءها أبعاد أو دلالات وشواهد شتى كما في أبيات ابن مرج الكحل الآتية التي يضمنها حسن ظنه بربه والطمع في مغفرته وعدم مؤاخذته بمعاصيه وذنوبه حيث يقول(82):

إن ظني بمن عصيت جميل أتراه معذبي! ماأظـــن

ماأراه إلا يجود بعفـــــو إن قلبي بعفوه مطمئن

حاشا لله أن يخيب ظنـــي إنه لايخيب في الله ظن

وأما أبو الحجاج يوسف المنصفي الأنصاري فإنه وافد على رب كريم وهل يحمل من يفد على الكرماء زادا لسفره فيقول(83):

قالت لي النفس أتاك الردى وأنت في بحر الخطايا مقيم

هلاتخذت الزاد قلت أقصري هل يحمل الزاد لباب الكريم!

ومع هذا التعليل الجميل والرد المقنع للنفس إلا أن الشاعر في أبياته التالية لايخفي خجله عندما يقف أمام هذا الرب الكريم مثقلا بالذنوب والعيوب ولكن مع ذلك لايفارقه حسن الظن فيقول(84):

واخجلتا منه إذا جئتـــه والعبد مطلوب بدين قديم

وما أرى يطلبني قد درى إني محتاج إليه عديم

ولست محتاجا إلى شاهد لأن مولاي بحالي عليم

وحكمه القسط لايقتضي هلاك مديان بمال الغريم

وابن حكم القرشي قادم على مولاه لايحمل من الزاد رغم عظم الذنوب غير حسن الظن في فضل الرب الكريم فيقول(85):

حان قدومي على القديـــم ويحسن الظن بالكريم

إن كان ذنبي عظيما أضحى فأين منه عفو العظيم؟

حسبي أني أرجو لديـــــه فضل غني على عديم

وله في المعنى نفسه(86):

يارب إن راحل والزاد مـــا عندي منه للرحيل عتـــــاد

والوقت عنه ضيق ولديك ما يسع الورى لهم وأنت جواد

وهذه المعاني رددها شعراء آخرون في عصور مختلفة ويبدو أن كثرة تداول هذه المعاني بين الجماعات الدينية المختلفة والأفراد جعل بعضها يفلت إلى دائرة الاستعمال العام الذي لايعتبر فيه أخذ ولاسرقة لأن هذه المعاني أصبحت من أسس القول في الزهد لايختلف الناس في توليد المعنى ولكن يختلفون في حسن الصنعة وجودة السبك .

الهوامش

1- دائرة معارف البستاني مادة : زهد .
2- دائرة المعارف الإسلامية مادة: زهد .
3- لسان العرب مادة: زهد.
4- الإتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي عهد الطوائف والمرابطين ص 146 منجد مصطفى بهجت- مؤسسة الرسالة ط 1 (1407ه-1986) .
5- الأدب في التراث الصوفي ص 48 ومابعدها - محمد خفاجة مكتبة وهبة
6- المصدر السابق و الصفحات نفسها .
7- اتجهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ص304 – محمد مصطفى هدارة دار المعارف مصر ط3-1969م.

8- تاريخ الفكر الأندلسي ص 326 – بلنثيا – ترجمة حسين مؤنس ط 1 النهضة المصرية 1955 .
9- تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة ص 116 -إحسان عباس – ط 2 دار الثقافة بيروت -1968م .
10- الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ص 203فوزي سعد عيسى- دار المعرفة الجامعية الإسكندرية.
11- المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص 409-410 عبدالواحد المراكشي ضبطه وصححه محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي ط 7- 1987م .
12- دار الكتاب الدار البيضاء ابن عبد ربه الحفيد فصول من سيرة منسية – ص 38-39 محمد بن شريفة دار الغرب الإسلامي ط 1 -1992.
13- الذيل والتكملة 8- ص 234-236 لأبي عبد الله محمد بن عبد الملك المراكشي – تحقيق إحسان عباس دار الثقافة بيروت - لبنان .
14- الأدب الأندلسي في عصر الموحدين ص-16 حكمة الأوسي – مكتبة الخانجي – مصر ط 3 -1977م.
15- التكملة لكتاب الصلة لابن الآبار 2- ص 144 تحقيق عبد السلام الهراس- دار المعرفة – المغرب.
16- الأدب الأندلسي في عصر الموحدين ـ حكمة الأوسي ص 16 .
17- أبو الربيع سليمان الكلاعي حياته وآثاره ص 198 ثريالهي .طبع وزارة الأوقاف – المغرب 1414 ه -1994 هـ .
18- المصدر نفسه ص 199.
19- المصدر نفسه – ص 201 .
20- المصدر نفسه ص- 200.
21- أبو المطرف بن عميرة حياته وآثاره ص -299- محمد بن شريفة – منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي – مطبعة الرسالة – الرباط 1385 هـ – 1966م.
22- نفسه ص 299 وانظر الذيل والتكملة 6 – 273 .
23- المصدر نفسه ص 299 الذيل 6 – 273.
24- المصدر نفسه ص 300 الذيل 6 -273.
25- المصدر نفسه ص 300 الذيل 6 -273.
26- آثار أبي زيد الفازازي ص 172 تقديم وتحقيق عبد الحميد الهرامة – دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع ط 1-1412ه-1991م .
27- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب 6 -224 – أحمد المقري التلمساني – شرح وتعليق – مريم قاسم طويل ويوسف علي طويل – دار الثقافة العلمية – بيروت- لبنان -1410ه-1990م.
28- اختصار القدح المعلى ص 157 – تحقيق إبراهيم الأبياري – دار الكتب الإسلامية – ط 2 -1400هـ -1980م .
29- ابن مرج الكحل الأندلسي سيرته وشعره ص 110 –صالح جرار – دار البشر –عمان ط 1 -1414ه-1993م .
30- نزهة الألباب في صفات الأحباب ص 69 لابن عبيديس مخطوط .
31- الإحاطة في أخبار غرناطة 1- ص -261 -262 لسان الدين بن الخطيب – تحقيق محمد بن عبدالله بن عنان –مكتبة الخانجي – القاهرة .
32- اتجاهات الشعر في القرن الثاني الهجري ص 313.
33- ترجمته في تحفة القادم ص 92 والمغرب -1-406 والغصون اليانعة -135 وانظر هامش -2 –نفح الطيب-2-ص 264
34- التكملة -2- ص 179-180 .
35- نفح الطيب -4- ص 264 الغصون اليانعة ص 137.
36- المصدر نفسه ص 198 .
37- صلة الصلة -3- ص 54 تحقيق عبد السلام الهراس وسعيد أعراب –طبع وزارة الأوقاف المغربية -1414ه-1994م
38- الإحاطة في أخبار غرناطة -2- ص 425 .
39- رحلة العبدري ص 270 تحقيق وتقديم محمد الفاسي .
40- الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ص 41 –ابن أبي زرع الافسي – دار المنصور للطباعة والوراقة –الرباط – 1972 .
41- الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة ص 136- ابن سعيد المغربي – تحقيق إبراهيم الأبياري ط 3 – دار المعارف.
42- عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ص 174 أبو القاسم الغبريني حققه وعلق عليه عادل نويهض منشورات دار الآفاق الحديثة – بيروت ط 2 -1993 .
43- نفح الطيب -3- ص 142 .
44- المصدر نفسه -3- 239.
45- المصدر نفسه -3- 238.
46- المصدر نفسه -3- 237.
47- المصدر نفسه -3-238.
48- آثار أبي زيد الفازازي ص 74-75 .
49- صلة الصلة – 5-342 -343 .

50- نفح الطيب – 3 -238.
51- سورة يونس آية (101).
52- سورة الغاشية آية (20).
53- رحلة ابن رشيد -2- ص 163 تحقيق وتقديم الحبيب الخوجة –الدار التونسية للنشر -1402 ه-1982م.
54- ديوان ابن الجنان ص 73 – جمع وتحقيق ودراسة منجد مصطفى بهجت – مطابع التعليم السياسي –أسوان -1410ه-1990م.
55- رحلة ابن رشيد -2- ص 254-255 آثار الفازازي -158 -159 .
56- آثار الفازازي ص 92 -93 .
57- نفح الطيب 6 –ص 89.
58- المصدر نفسه ص -.104
59- رحلة ابن رشيد 2-ص 256.
60- ديوان ابن الجنان ص 78-79.
61- الإحاطة في اخبار غرناطة 4 – ص 279 وانظر برنامج الرعيني ص 62-63 تحقيق إبراهيم شبوح –مطبوعات إحياء التراث القديم – دمشق-1391ه-1962م.
62- ديوان ابن الآبار 252 قرءاة وتحقيق عبد السلام الهراس – الدار التونسية للنشر -1405ه-1985م.
63- آثار أبي زيد الفازازي ص 81 .
64- الذخيرة السنية ص 41 .
65- ابن مرج الكحل سيرته وشعره ص 122 .
66- آثار أبي زيد الفازازي ص 72.
67- المصدر نفسه ص 73 -74 .
68- ديوان ابن الجنان ص 79 .
69- المصدر نفسه ص 78.
70- المصدر نفسه ص 79.
71- نفح الطيب 4 – ص 316 .
72- نسبت هذه الأبيات في نفح الطيب 6 – ص 108 للشاعر أبي بكر محمد بن يحي البلنسي ونسبت في رحلة العبدري للشاعر أبي بكر عبد الله بن داوود رحلة العبدري -16-18.
73- رحلة العبدري ص 17 .
74- نفح الطيب 6 – ص 109.
75- آثار أبي زيد الفازازي ص 66.
76- رحلة العبدري ص 270 .
77- المصدر نفسه و الصفحة نفسها .
78- آثار أبي زيد الفازازي ص 159 .
79- ديوان ابن الجنان ص 71.
80- رحلة العبدري ص 277 وانظر الذيل والتكملة 5 -2-ص 674.
81- المقتضب من تحفة القادم ص 176 ابن الآبار القضاعي – تحقيق إبراهيم الأبياري –دار الكتاب اللبناني – دار الكتب الإسلامية ط 2 -1403ه-1983م .
82- ابن مرج الكحل سيرته وشعره ص136.
83- نفح الطيب 6 – ص 106 تحفة القادم ص 84.
84- تحفة القادم ص 117.
85- المصدر نفسه ص 85.
86- المصدر نفسه ص 85.